التعريف بالتراث المخطوط
للشيخ مصطفى بن عبد الله بن مومن الرماصي

د.حمدادو بن عمر
كلية العلوم الإنسانية والحضارة الاسلامية
– جامعة وهران –

الملخص:

أهم ما جاء في هذا الموضوع؛ التعريف بالشيخ مصطفى بن عبد الله بن مومن الرماصي (مولده ونشأته، وأهم ما أثر في بروز الشيخ من عوامل)، وأيضا التعريف بتراثه المخطوط الذي غطى جميع المعارف التي كانت سائدة في عصره وبلده.

الكلمات المفتاحية: المخطوط، التراث ، علم، الرماصي، متصوفة.

برز خلال العهد العثماني ثلة من العلماء بالوطن الراشدي، كانت لهم شهرة واسعة وذاع صيتهم في الآفاق؛ حيث تناولوا ضمن مصنفاتهم العلمية عدة فنون وعلوم ونبغوا فيها، بل أضافوا وأبدعوا فيها. ومن هؤلاء العلماء شخصية **أبو الخيرات مصطفى بن عبد الله بن مؤمن الرماصي** الملقب عند عامة الباحثين والفقهاء بمحقق الفقه المالكي.

وقبل أن نخوض في صميم الموضوع لابد من الإشارة ولو بجزء بسيط عن معرفة حياة ونشأة الشيخ مصطفى الرماصي العلمية، لننتقل بعدها إلى إبراز عدد من مصنفات الشيخ مصطفى الرماصي العلمية الطويلة منها والقصيرة.

المولد والنشأة:

ولد أبو الخيرات مصطفى بن عبد الله بن مؤمن الرماصي في حدود (**1043**ه/ **1634**م)، وهذا وفق عملية حسابية بين سنة وفاته (**1136**هـ/ **1724**م) وبين سنه الذي جاوز التسعين سنة. وعلى كل فهو من علماء القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. وقد كانت بلدة رماصة موضع مولده وبها نشأ وترعرع، فحفظ القرآن الكريم في

سن مبكرة، ومبادئ القراءة والكتابة، على يد علماء بلدته ثم علماء الوطن الراشدي آنذاك، كشيخه عمرو التراري المشرفي الذي رثاه بقصيدة الذي خصّه بمرثية طويلة سيأتي الكلام عنها في موضعها. كما تتلمذ الشيخ مصطفى الرماصي على ابن الشارف المازوني. وما يمكن الإشارة إليه هو أننا لم نقف في كتب التراجم عن شيوخه ما عدا شيخه عمرو التراري السالف الذكر.

ونظرا لتشبعه بمعارف علماء بلدته أمثال:

1. والده عبد الله بن مؤمن الذي كان فقيه زمانه.

2. الشيخ محمد بن علي الخروبي القلعي، والذي أخذ عنه الرماصي عقائد السنوسي.

3. الشيخ محمد بن الشارف المازوني مؤسس المدرسة الفقهية بمازونة، والذي روى عنه الرماصي صحيح البخاري.

4. الشيخ أبو زيد عبد الرحمن التوجيني الراشدي صاحب تأليف عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من شرفاء غريس.

5. الشيخ محمد الصحراوي نزيل قلعة مامون ببلاد منداس ودفينها، أخذ عنه الشيخ الرماصي طريق أهل التصوف(شريعة وحقيقة).

6. الشيخ محمد عمرو التراري المشرفي، من أسرة المشارفة بالكرط.

كما تاقت نفسه إلى الاستزادة في طلب العلم؛ فرحل إلى مصر أين درس على يد كبار العلماء بها أمثال:

1. الشيخ أبو محمد عبد الباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني (ت1099هـ/ 1687م)، صاحب شرح المختصر. (الزرقاني) (1020-1099ه=1611-1688م) عبد الباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني: فقيه مالكي، ولد ومات بمصر. من كتبه (شرح مختصر سيدي خليل) فقه، أربعة أجزاء، و(شرح العزية) ورسالة في (الكلام على إذا). الأعلام للزركلي، ج3، ص:72.

2. الشيخ إبراهيم بن مرعي بن عطية الشبراخيتي (ت1106هـ/ 1689م). الشبرخيتي إبراهيم بن مرعي بن عطية، برهان الدين الشبرخيتي: من أفاضل المالكية بمصر. توفي غريقا في النيل وهو متوجه إلى رشيد، من كتبه (شرح مختصر خليل) فقه، كبير، منه المجلدان الثالث والرابع، مخطوطان عند الشاويش في بيروت، وأجزاء في الصادقية بتونس، و(الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين حديثا النووية. الزركلي، الأعلام، ج1، ص:73.

3. الشيخ الخرشي: الخرشي (أوالخراشي) (1011-1101هـ) هو محمد بن عبد الله الخراشي المالكي. أول من تولي مشيخة الأزهر. نسبته إلى قرية يقال لها ((أبو خراش)) من البحيرة بمصر. قال في التاج ((خراش كسحاب)) أقام بالقاهرة وتوفي بها. كان فقهيا فاضلا، من تصانيفه: ((الشرح الكبير علي متن خليل))؛ و((الشرح الصغير علي متن خليل أيضاً في فقه المالكية))؛و((الفوائد السنية شرح المقدمة السنوسية)) في التوحيد. الأعلام للزركلي، ج7، ص:118.

4. الشيخ التتائي: التتائي (000– 942ه=000–1535م) محمد بن إبراهيم بن خليل التتائي: فقيه من علماء المالكية. نسبته إلى "تتا" من قرى المنوفية بمصر. نعته الغزي بقاضي القضاة بالديار المصرية. الأعلام للزركلي، ج5، ص:302.

5. الشيخ السنهوري: (سالم السنهوري) (945 – 1015 هـ= 1538 – 1606 م) سالم بن محمد عز الدين بن محمد ناصر الدين السنهوري المصري: فقيه،كان مفتي المالكية. ولد بسنهور وتعلم في القاهرة، وتوفي بها. له (حاشية على مختصر الشيخ خليل – خ) في الفقه، تسعة مجلدات، سماه (تيسير الملك الجليل لجمع الشروح وحواشي خليل) في الزيتونة بتونس، ومنه المجلد الأول في خزانة الرباط (851 د). الأعلام للزركلي، ج3، ص:72.

6. علي بن زين العابدين الأجهوري (ت 1066هـ): الأجهوري (967 – 1066 ه = 1560– 1656 م) علي بن محمد بن عبد الرحمن بن علي، أبو الارشاد، نور الدين الأجهوري: فقيه مالكي، من العلماء بالحديث. مولده ووفاته بمصر من كتبه " شرح الدرر السنية في نظم السيرة النبوية " مجلدان، و" النور الوهاج في الكلام على الإسراء والمعراج" و"الأجوبة المحررة لأسئلة البررة " فقه، و" المغارسة وأحكامها " و" شرح رسالة أبي زيد " فقه، و" مواهب الجليل " في شرح مختصر خليل، فقه، و" غايه البيان ". الأعلام للزركلي، ج5، ص:13.

تلاميذه:

بعد عودة الشيخ مصطفى الرماصي من مصر إلى بلده واستقراره بمعسكر، بدأ بنشر العلوم والمعارف، في رباط خاص ضد

الإسبان، وقد ذكره عبد الرحمن الجامعي شارح أرجوزة الحلفاوي التلمساني بقوله:" كنت وفدت على العالم العلامة الرواية النقاد منهل العلم الأصفى أبي عبد الله سيدي محمد المصطفى الرماصي، فوجدته يسكن بأهله بيوت الشعر قرب غابة في رأس جبل يأوي إليهم ليلا ويظل بالنهار في داره ومسجده، يطالع كتبه ويقرئ طلبته، فسألته عن ذلك، فقال: كنا على هذه الحالة على عهد الاسبانيين خوفا منهم، فإننا كنا لا نأمن في الدور من أن يصكونا ليلا، فخرجنا لبيوت الشعر ليسهل علينا الفرار لغابة الجبل".

أمّا عن تلامذته فقد تخرج على يديه جمع كثير من التلاميذ العلماء، ومن هنا فإن نجزم على أن هناك عددا كثيرا من طلبته ممن درسوا عليه؛ غير أنه لم يصلنا من أسمائهم سوى القليل أمْثال:

1. الشيخ محمد بن علي الشريف الجعدي.

2. الشيخ علي والد الشيخ محمد أبو طالب المازوني، استفاد منه في مجال الأسانيد العمية.

3. الشيخ محمد بن عبد الله بن أيوب المعروف بالمنور التلمساني دفين مصر، وقد روى عن الشيخ مصطفى الرماصي.

4. أبو عبد الله بن عبد الرحمن الفاسي.

وهناك حكايات تروى إبان مكوث الشيخ مصطفى الرماصي بمصر، خصوصا بعدما أصبح عالما وقاضيا بالأزهر الشريف، فأثناء محاولة رحيله إلى بلده الجزائر، اجتمع أعيان من علماء الأزهر حول

مصير الشيخ مصطفى الرماصي؛ وعدم جعله يغادر مصر، وهذا من شأنه أن يشكّل فارغا علميا كبيرا بمحاضرة الأزهر الشريف، غير أن الشيخ تمكن من الفرار.

وما يمكن الإشارة إليه أيضا خصوصا تلك الروايات التاريخية التي يسردها لنا الشيخ عبد الوهاب، أن الأستاذ مولود بلقاسم نايت بلقاسم في إحدى محاضراته ضمن ملتقيات الفكر الإسلامي، أنّ نابليون الثالث عند حملته على مصر صادر معظم مؤلفات الشيخ مصطفى الرماصي، واستنبط منها تشريعه المعروف اليوم بالتشريع النابليوني.

ومن بين المؤلفات الجزائرية المخطوطة التي تطرقت إلى شخصية مصطفى الرماصي، الشيخ محمد بن حوا في كتابه" **سبيكة العقيان فيمن حلّ بمستغانم من العلماء والأعيان**" حيث يقول:

مشائخنا أئمة حفاظا متابعين علمهم أيقاظا
أولهم شيخ شيوخ العصـــر غرة جمع علماء القطر
خاتمة الحفاظ والنقـــــاد شمس بذور الأقوياء الأفراد
فاتح قفل مشكلات الوصم سراج غبش الظلمات الدّهم
رئيس جمع الأقوياء الغواص المصطفى محمد الرمـــــاصي

إنّ هذا الوصف الجامع لخصال هذا العالم؛ إنما ينم عن مدى تضلع وغزارة علم شيخ شيوخ العصر الذي هو الشيخ مصطفى الرماصي، خلال فترة تواجد العثمانيين بالجزائر عموما وبالناحية الغربية خصوصا؛ وحروبهم الدائمة مع الاسبان. أمّا قوله:" فاتح قفل

مشكلات الوصم" فيقصد بها التحقيق الفقهي في قضايا الفقه المالكي التي يصعب حلها.

تراث الشيخ مصطفى الرماصي:

أ/ في علم التوحيد:

لقد أسهم متصوفة بايلك الغرب في مجال علم التوحيد أو ما يصطلح عليه بعلم الكلام، فنجد مثلا مصطفى الرماصي يضع حاشية على صغرى السنوسي، يتناول فيها علم الكلام، بل كان من الذين حثوا على تعلمّه معرفا إياه بقوله:" علم الكلام أوثق العلوم دليلا، وأوضحها سبيلا، وأشرفها فوائد، وأنجحها مقاصد، إذ به تعرف ذات الحقّ وصفاته، ويصرف عنه ما لا يليق به ولا تقبله ذاته، وقد شرف كل علم بحسب معلومه، وقد صنف في ذلك ما لا يحصى كثرة من الدواوين والمختصرات، وقد اعتني في هذا الزمان بمقدمة...محمد بن يوسف السنوسي، المسمّاة بصغرى السنوسي ، لعظم فوائدها وبركة مؤلفها...".

هناك بعض العوامل في رأينا، تعزز اختيار هؤلاء المتصوفة لعقيدة السنوسي، تتلخص أساسا في رغبة أهل الغرب الإسلامي عموما في الاستقلال السياسي والفكري عن المشرق، وميلهم إلى الوحدة السياسية والفكرية والمذهبية. ورغبة متصوفة بايلك الغرب من تداول كتب السنوسي، خصوا ما تعلق منها بعقائد السنوسي في كتابيه الصغرى(أم البراهين) والكبرى(عقيدة أهل التوحيد والتسديد) ومختلف شروحهما .

ولعلّ من أهم المباحث التي تطرق إليها مصطفى الرماصي ضمن حاشيته، تلك المتعلقة بصفات المعاني كالقدرة والإرادة، والعلم، والحياة

والسمع والبصر والكلام. وصفات الكمال لله تعالى كثيرة . استطاع السنوسي أن يرسّخ العقيدة الأشعرية في نفوس متصوفة إيالة الجزائر عموما ومتصوفة بايلك الغرب خصوصا، ويبعث فيها حياة جديدة ويمدها بدم جديد جعلها تواصل مسيرتها وتمارس هيمنتها، بالرغم من بروز بعض خصومه من معاصريه الذين عارضوه في بعض المسائل خاصة في مسألة إيمان المقلد، ورؤية المعدوم. كأحمد بن زكري التلمساني(ت.900هـ) الذي وضع منظومة محصّل المقاصد ردّ بها على السنوسي .

وعلى ما يبدو فإن مكانة الرماصي هذه لم تكن ترتبط ببراعته فحسب؛ بل إلى تعزيز العثمانيين للمذهب المالكي بالمذهب الحنفي، واعتماد هذا الأخير كمذهب رسمي للدولة آنذاك. ومن زاوية أخرى نجد أنّ إلحاح الرماصي على أهمية وضرورة تعلم علم الكلام؛ إنما هو تبرك بمؤلفها. إن هذا الاعتقاد الراسخ في أذهان المتصوفة ولّد شعورا بضرورة الاهتمام بهذه الحاشية وبمكانة مؤلفها.

ولعلّ شهرة مصطفى الرماصي هي التي مكنت حاضرة تلمسان من تبوء مكانة مرموقة، اعترف لها بها علماء بلاد المغرب العربي. حيث كان منبع علم التوحيد بشهادة ممّن ألفوا في علم التوحيد، ولعلّ من أبرزهم علماء تلمسان والمغرب الأقصى، أمثال أحمد المقري صاحب كتاب نفح الطيب الذي قال عنه:" أن سنده في علم التوحيد يتصل بعلماء الراشدية العارفين بهذا الشأن". وكذلك قول الشيخ السكتاني قاضي مدينة مراكش الذي قال في حاشيته على الصغرى حاكيا عن

مصطفى الرماصي قوله:" أنّ سنده في هذا الفن – علم التوحيد – يتصل بعلماء الراشدية" واصفا إياها بأنها منبع علم التوحيد.

ومّما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام إنه إذا ذكر مصطفى الرماصي فإنه يذكر على أنه فقيه محقق لعلم التوحيد وبه اشتهر، دون أن يذكر عالم كلامي متفنن فيه. غير أنّ هذه الإشارة – عالم كلامي– لها دلالتها وأبعادها في تقدير منزلة الرجل، " فالصغرى أو أم البراهين، إلى جانب عقيدة أهل التوحيد، وهي العقيدة الكبرى، والعقيدة الوسطى من أهم المتون التي اهتم بها متصوفة بايلك الغرب اهتماما بالغا»، وخصوصا مصطفى الرماصي.

ومن بين المآخذ التي نلحظها على كلام مصطفى الرماصي، أنه لم يذكر المنهج الذي سار عليه في تعليقه على علم التوحيد، بل دخل مباشرة في صلب الموضوع، فبدأ يبّين ألفاظ ومعاني كلام السنوسي . ولكن الحقيقة غير ذلك فكما جرت بعض عادة الأوليين أنهم يتطرقون إلى ذكر ذلك من خلال تلك الشورحات والألفاظ والمعاني حتى يستوعبها الباحث والمهتم بدراسة التراث العلمي لمن سبق. وقد يوصف كلامه على أنه كلام تقليدي، وإنما أضاف إليه معارفه الخاصة وأسلوبه. غير أن الملفت للانتباه هو أن ضخامة تلك الحاشية " تعتبر عملا ضخما من حيث حجمها. "

إنّ حاشية الرماصي في صورتها التأليفية تشكل وجها مألوفا لنوعية التآليف التي كانت سائدة في ذلك العصر. وسنحاول هنا أن نبيّن فحوى هذه الحاشية وقيمتها وهو نوع من التآليف تداولها علماء العهد العثماني واهتموا بها.

ورغم تصدي الرماصي للتدريس بجبال الراشدية أثناء الفتح الأول لوهران عام 1119هـ/ 1707-1708م ومعاناته من خطر الإسبان، إلا أن ذلك لم يمنعه من التأليف والتمحيص والتحقيق، فنجده يخوض في مباحث علم الكلام، وهذا ما يفسّره أحد علماء فاس أثناء رحلته للجزائر وزيارته لمصطفى الرماصي وهو يدرس طلبته العلم الشرعي، قوله: " كنت قد وفدت على العالم الراوية النقاد منهل العلم الأصفى أبي عبد الله سيدي محمد المصطفى الرماصي، فوجدته يسكن بأهله بيوت الشعر قرب غابة في رأس جبل يأوي إليهم ليلا ويظل بالنهار في داره ومسجده يطالع كتبه ويقرئ طلبته، فسألته عن ذلك فقال: كنا على هذه الحالة على عهد الإسبانيين خوفا منهم، فإننا كنا لا نأمن في الدّور من أن يصلونا ليلا، فخرجنا لبيوت الشعر لسهل علينا الفرار لغابة الجبل. "

إنّ حاشية الرماصي التي اعتمدها العديد من العلماء ممن جاؤوا بعده في مصنفاتهم، تعد إضافة علمية لواقع بايلك الغرب العلمي والفكري. فهي بذلك تعكس ذلك الواقع الذي لطالما كان منحصرا في علوم معينة.

والمتمعن في هذه الحاشية يدرك تأثر متصوفة بايلك الغرب بالمدرسة الأندلسية، فقد حاولوا إعطاء صورة واضحة عن الواقع المعيش وتدوينه ضمن مصنفاتهم. من هنا نلحظ ميزة الكتابة لدى هؤلاء المتصوفة. وكرؤية نقدية لمجموع المتون التي تمّ تناولها بالدراسة والتحليل، وهو ما جعلنا نلحظ عدم التزامهم بالإشكالية المحددة التي تمّ طرحها ضمن المقدمة مثلا، وهو أسلوب القدامى في تناول مثل تلك المواضيع .

فنرى مصطفى الرماصي قد قسّم حاشيته إلى مسائل وشرحها، وقبل هذا شرح كلام السنوسي استنادا إلى قول العلماء استنباطا من الكتاب والسنة. في حقيقة الأمر اختصار لحاشية اليوسي على شرح الإمام السنوسي مع زيادات واستدراكات، على اليوسي، ونظرا لأهميتها اعتمد عليها الرماصي في حاشيته التي اشتملت على فوائد لخصها من حاشية اليوسي .

إنّ استيعاب المضامين التي رام مصطفى الرماصي الوصول إليها، لن تتأت إلاّ من خلال الاطلاع على ذلك الكمّ الهائل من المصادر العقائدية، للوقوف على أهمية المجهود المبذول. والواقع أنّ حاشية الرماصي تطرح مجموعة من القضايا والتخريجات التي تدفع إلى التأمل، وبما يسمح به الاجتهاد من فسحة لتبادل الآراء وبسط حدود التأويل.

فمثلا حاول مصطفى الرماصي أن يشرح عقيدة السنوسي انطلاقا من شرحه الذاتي لها استنادا على معارف كان قد اكتسبها خلال تحصيله للعلم الشرعي وضمن رحلاته التي قادته إلى بلاد المشرق أين استزاد في تحصيلها وتنميتها. فتطرق إلى مسألة صفات الله تعالى وأسمائه، وتعرضه لمسألة إيمان المقلد، ورؤية المعدوم. وهو ما دفع ببعض خصومه بمعارضته كأحمد بن زكري التلمساني(ت.900هـ) الذي وضع منظومة محصّل المقاصد ردّ بها على السنوسي.

ب/ في الفقه:

تعد تلك المؤلفات العلمية والتي كانت تهتم بالفقه المالكي المغاربي عمدة متصوفة بايلك الغرب وطلبتهم. وقد كان كتاب مصطفى الرماصي القلعي[1] الذي وضع حاشية على شرح التتائي لمختصر خليل[2]،

والذي أوضح من خلالها غايته من تأليفها، بعد الديباجة بقوله:" لما كان علم الفقه من أفضل العلوم بعد كتاب الله تعالى وسنة رسول الله؛ إذ به تعرف الأحكام ويتميز الحلال من الحرام. وقد صنف فيه الأئمة الأعلام دواوين لا تحصى، وأحسن ما صنف في ذلك مختصر خليل؛ إذ أقبلت عليه الطلبة غربا وشرقا، وله شرح كثيرة، وأحسنها شرح العلامة شمس الدين التتائي،...[3]وطلب مني بعض الإخوان أن أضع عليه حاشية، تبين مشكله وتحلّ مقفله، فأجبته لذلك بعد الاستخارة"[4]. ثمّ أن جل العلماء والمتصوفة عند قدومهم على تأليف كتبهم، فإنهم يستخيرون الله سبحانه وتعالى، طلبا للتوفيق والاستفادة، وهو ما دأب عليه متصوفة بايلك الغرب.

وبعد أن أوضح المؤلف في البداية الباعث على تأليفه لهذه الحاشية الطويلة على شرح التتائي لمختصر خليل، قسم هذا الشرح إلى أبواب على شاكلة مختصر خليل مثل: باب الصلاة، باب الطهارة،...الخ[5].

وعلى سبيل المثال والتنظير عن تلك المؤلفات الفقهية والتي شملت أيضا أمور الفتيا، ما كتبه الشيخ مصطفى الرماصي الذي يعتبر أحد أعمدة الفقه المالكي ببايلك الغرب، حتى أنه لقب بـ" محقق الفقه المالكي" كما ذكرنا ذلك آنفا. من ذلك قوله في مسألة بعد الحمدلة والصلاة على النبي" ﷺ وجدت بخط الولي الصالح سيدي عبد القادر بن يسعد البرذعي ما نصه، ومن خط شيخنا وقدوتنا شيخ الإسلام وقدوة الأنام أبي عبد الله سيدي محمد بن سيدي علي أبهلول ذكر البلنسي في كتابه المسمى صلة الجمع وعائدة التذييل بموصول كتابي الإعلام والتكميل، في سورة طه عن قوله سبحانه "هي عصاي" ما نصّه

عند نقله عن ابن عباس ما نقل، تكميل قال المؤلف رحمه الله تعالى اختلف العلماء، عود العصا من أي نوع كان، من أنواع النبات على أربعة أقوال، ولما ذكر الثلاثة قال القول الرابع أنها كانت من المقر وهو اللوز المر، أعطاها له ملك في مسيره إلى مدين، قاله بعض العلماء، وفي هذا النوع من النبات خواص تؤذن بصحة هذا القول".

إنّ هذه الفتوى تُنم عن مدى توسع مصطفى الرماصي وتحقيقه للمسألة الفقهية وفق ما يستوجبه الشرع من الكتاب والسنة، ولرفع الغبن والمشقة عن المسلم. فتراه يوضح معنى المسألة ويشرحها لغويا ومن ثم يعطي حكمه فيها، وهي عادة علماء تلك الفترة من العهد العثماني.

وهناك كتاب عبارة عن أجوبة فقهية أجاب فيها عن أسئلة عالم تطوان الشيخ سيدي علي بركة، عن مسائل في مختصر الشيخ خليل. يستفتيه عنها. وهي تعد قمة في تبحر الشيخ مصطفى الرماصي في مجال تحقيق الفقه المالكي على مختصر خليل، وتصحيح بعض الردود الفقهية وتعكس شخصيته العلمية.تقع في 21 ورقة، أولها (هذا ذكر ما وقع التشكيك فيه لبعض من قصر باعه وندر اطلاعه من كلام صاحب المختصر)،

وللإشارة فإن هذه الأجوبة نعمل على تحقيقها ودراستها؛ ومحاولة إخراجها لعامة الباحثين بغية الاستفادة منها، وتوظيفها في مجالات البحث المختلفة.

ج/ في الخطب والوعظ والارشاد:

في مجال الخطب الدينية نلحظ أن الشيخ مصطفى الرماصي يدون خطبة حول موضوع الاستسقاء، فنجده يقول:" أيها الناس؛ إن أعلام الغفلات مفصحة

بصدق حلول المثلات، وأن الاصرار على السيئات، يؤذن بهجوم مذموم البليات، وأن علينا من الغفلة سنة لا يوقظ هاجعها، وبينا من الأضرار آفة لا تؤمن مصارعها، وكفى بحجب قطر السماء عن الأسرار فجيرا، وظهور القحط والغلاء، بحلول الانتقام ونزول الدوائر منذرا...اللهم لا تهلكنا بقبيح أعمالنا وأن ترحمنا برحمتك جميعا صغارا وكبارا، فأنزل علينا الغيث من السماء مدرارا، وأنت أعلم بسوء أحوالنا، فَجُدْ علينا بتبليغ آمالنا، والحمد لله رب العالمين"[6].

وهناك رسائل هي منزلة بين المنزلتين، لا هي صوفية محضة ولا هي دينية خالصة، فالخطاب فيها يتراوح بين العبادات والمعاملات وبين الأحوال والمقامات، وإذا كان الغالب فيها يتوزع ما بين الوعظ والإرشاد.

ومن بين هذه المراسلات رسالة مصطفى الرماصي– وهي طويلة – فجاءت لترد على مقتضيات الخطاب الوارد في أحد الأحكام التي أصدرها أحمد بن عامر البرجي، دون أن يستشير عالم وقته آنذاك، وإن كان الرماصي يتهم فيها صاحبه بالخروج عن دائرة الأدب وعن القاعدة المتبعة في الخطابات العلمية" أما بعد فكثيرا ما يرد عليك كتابنا فتضرب عليه صفحا، وتطوي عنه كشحا، ساعتناك مرارا، ولم تهتك لك ضرارا، مع علمنا أنّ المسامحة في الحقّ مداهنة ارتكبناها، وما ينبغي لما ذلك سهل ارتكابها، إبقاء مردة الإتلاف، وحسما لمادة الشقاق والاختلاف. فلو اتصفت بالإنصاف، وجانبت التعصّب والاعتساف، لوقفت عند تخليط الأمر عليك وقفة حيران، تأدبا مع أئمة الأمة تأدب الهدهد مع سليمان".

وهذه الإشارة كافية للدلالة على أنّ المتراسلين كانوا ينطلقون في خطاباتهم من رصيد أدبي موزع بين الغايات والأهداف. إنّ رسالة الرماصي تعتمد اساسا على الحجة، ذات دلالة إيحائية، مدعمة بالدليل القاطع الثبوتي، وكل ذلك من أجل تبيان وجه الحقيقة العلمية الغامضة عن الطرف الآخر في استقراء

الدليل الشرعي، ودون الرجوع إلى عالم الوقت. "..لم تسألن عن مسألة ولم تباحثن في قضية، والأئمة ترد عليّ استفتهم من تلمسان ومن المغرب الأقصى ومن الجزائر، والإخوان عن يمينك وشمالك تباحثني مشافهة وكتابة بجودة الأبحاث تلهم لفتح أقفال المشكلات، وتلك طريقة أهل العلم.." . هذا جانب مما ورد في رسالة الرماصي، وهو في جميع الأحوال عالم الوقت بلا منازع، فاقت شهرته بلاد المشرق والمغرب .

وممّا يمكن الإشارة إليه هو أن هؤلاء المتصوفة كانت لديهم رسائل سلوكية تربوية، أدبية في بعدها الإيحائي، محملة بقيم الفن الأدبي العثماني، ففيها من السجع والكناية والمجاز، ما يشهد ببراعة المتصوف في التحبير والترسل، ولا تكاد تخلو من المواعظ الدينية ومن السلوكات التربوية.

د/ في فنون الأدب(الرثاء):

وهناك في مجال الأدب لمسة للشيخ مصطفى الرماصي نلحظها من خلال قصيدة رثائية نظمها في شيخه عمرو التراري بن أحمد المشرفي؛ والتي تحتوي على 105 بيتا. وهناك من قام بإخراجها للنور ونفض الغبار عنها ونقصد بذلك الأستاذ الجيلالي الزاوي[7]، الذي حاول جاهدا شرح بعض كلماتها ومفرداتها المبهمة، ونشرها في المجلة الجزائرية للمخطوطات بمخبر المخطوطات بوهران. ويعود تاريخ تلك القصيدة إلى أكثر من ثلاثمائة سنة وقد حذا فيها حذو أبي حيان في قصيدته المشهورة في رثاء أبي جعفر النحاس التي تحوي نفس عدد أبيات قصيدة مترجمنا.

كما وضع عليها الأستاذ بشير بويجرة محمد دراسة وافية في حوالي 35 صفحة من الناحية الأدبية والبلاغية. ولعل مطلعها:

خليلي عوجا بي على طلل معالمه قد غيرت ومعاهده
عفاوأسفت عليه السافيات بعيدنا دقاق الحصى فانحطّ بها أجالده

وما جاء في آخرها:

وصلي على المختار من آل هاشم من أجله طال فرعه ومحائده
محمد المبعوث للخلق رحمة شفيعهم في موقف الحشر فارده
عليه صلاة الله ثم سلامه وآله والأصحاب كل مسانده
تدوم مدى الأيام ما رنحّ الصبّـــا بالأسحار رندا ناعم القصر مائـــده

خاتمة:

لقد حاولنا في هذه العجالة أن نبرز تراث أحدة أعمدة محققي المذهب المالكي، الشيخ مصطفى الرماصي، والتعريف به لدى عامة الباحثين والمهتمين بتراث الجزائر عموما وبتراث الناحية الغربية خصوصا؛ نظرا لما تمتاز به من كثرة العلماء والصلحاء من جهة، ونظرا للقرب الجغرافي بينها وبين حواضر المغرب الأقصى.

وقد قطعنا عهدا على أنفسنا أن نعرّف بتراث أجدادنا الأعلام وإخراج مدوناتهم دراسة وتحقيقا إلى النور، حتى يتسنى للباحثين والمؤرخين توظيفها ضمن مجال بحوثهم العلمية والاستئناس بها.

الهوامش:

[1]) نسبة إلى قلعة بني راشد ببايلك الغرب. أنظر: مؤلف مجهول، جوانب من قلعة بني راشد، مخطوط خزانة البشير محمودي، البرج، معسكر، وتوجد نسخة منه بخزانة الشيخ عبد القادر بن يسعد بقلعة بني راشد بقرية الدبة. كما توجد نسخة منه مصورة بحوزة الأستاذ مختار بوعناني بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة وهران.

[2]) اطلعنا على نسخ منها في كل من: خزانة الشيخ البشير محمودي، خزانة القرويين بفاس، الخزانة العلمية الصبيحية، الخزانة الحسنية الملكية بالرباط تحت رقم:2357، 3469، 3587، 4368، 5569، 7814، 8244، 8245، 8517، 8668، 8690، 8690، 8957، 10471، 11573، 12987، 13874. ونسخ أخرى بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط، تحت رقم:12456، ونسخ بمكتبة علال الفاسي بالرباط، تحت رقم: 245، ونسخ أخرى بالخزانة العلمية بالمسجد الأعظم بتازة، تحت رقم:247، 248، 695.

[3]) مصطفى الرماصي، حاشية الرماصي على شرح التتائي لمختصر خليل، مخطوط خزانة الشيخ البصير محمودي، البرج، معسكر، و:1و.

[4]) المصدر نفسه، و:1و.

[5]) المصدر نفسه ، و:9و.

[6]) الرماصي مصطفى، خطبة الاستسقاء، مخطوط بخزانة الشيخ محمودي البشير، البرج ولاية معسكر. و:1و.

[7]) الزاوي الجيلالي والمشرفي عبد الكريم، نافذة على بعض علماء معسكر، رثاء الشيخ مصطفى الرماصي لشيخه عمرو التراري المشرفي، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مخبر مخطوطات الحضارة الاسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران، ع2/ 3، 2004/ 2005، ص ص:85-100.

ثبت المصادر والمراجع:

جورج دولفان، القول الأحوط في أسماء الكتب المتداولة بالمغرب الأقصى والأوسط، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 3245.

الرماصي مصطفى، خطبة الاستسقاء، مخطوط بخزانة الشيخ محمودي البشير، البرج ولاية معسكر.

الرماصي مصطفى، رسالة مصطفى الرماصي يوبّخ فيها أحمد بن عامر البرجي، مخطوط بخزانة الشيخ محمودي البشير، البرج ولاية معسكر.

الرماصي مصطفى، حاشية على أم البراهين للسنوسي المسماة بصغرى السنوسي، مخطوط خزانة الشيخ محمودي البشير، البرج معسكر. ونسخة الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم: ك 2499، ضمن مجموع.

الرماصي مصطفى، حاشية على شرح التتائي لمختصر خليل، خزانة الشيخ محمودي البشير البرج معسكر، ونسخة خزانة القرويين بفاس، ونسخة الخزانة العلمية الصبيحية، ونسخ الخزانة الحسنية الملكية بالرباط، المغرب، تحت رقم:2357، 3469، 3587، 4368، 5569، 7814، 8244، 8245، 8517، 8668، 8690، 8690، 8957، 10471، 11573، 12987، 13874. ونسخة المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط، المغرب، تحت رقم:12456، ونسخة بمكتبة علال الفاسي بالرباط، المغرب، تحت رقم: 245، ونسخ أخرى بالخزانة العلمية بالمسجد الأعظم بتازة، المغرب، تحت رقم:247، 248، 695.

الرماصي مصطفى، أجوبة الرماصي على أسئلة علي بركة التطواني، خزانة القرويين، والمكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط، وخزانة مؤسسة علال الفاسي الرباط.

الرماصي مصطفى، قصيدة رثاء نظمها في شيخه عمرو التراري بن أحمد المشرفي، خزانة الشيخ محمودي البشير البرج معسكر.

محمد الأعرج، تسهيل المطالب لبغية الطالب، ضمن مجموع الحسب والنسب للشيخ الهاشمي ابن بكار المعسكري، المطبعة الخلدونية، تلمسان.

ملاحق الدراسة

الورقة الأولى

مصطفى الرماصي(ت1724م)، أجوبة الرماصي فيما وقع التشكك فيه من كلام صاحب المختصر(ضمن مجموع)، خزانة علال الفاسي، الرباط، المغرب الأقصى.

الورقة الأولى

مصطفى الرماصي(ت1724م)، رد الرماصي على أحمد بن عامر البرجي، رسالة مخطوطة، خزانة الشيخ البشير محمودي، البرج، معسكر.

الورقة الأولى

مصطفى الرماصي(ت1724م)، خطبة الاستسقاء، رسالة مخطوطة، خزانة الشيخ البشير محمودي، البرج، معسكر.

الورقة الأولى

مصطفى الرماصي(ت1724م)، حاشية الرماصي على التتائي على مختصر خليل، مخطوط خزانة الشيخ البشير محمودي، البرج، معسكر.

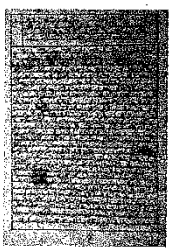

الورقة الأولى

مصطفى الرماصي(ت1724م)، شرح الرماصي على صغرى السنوسي، مخطوط خزانة الشيخ البشير حمودي، البرج، معسكر.

الورقة الأولى

مصطفى الرماصي(ت1724م)، قصيدة رثاء الرماصي لشيخه عمرو التراري المشرقي، ديوان أشعار، خزانة البشير حمودي، البرج، معسكر.